السوري

من خطبة تليت في جمعية الشبيبة السورية في المدرسة الكلية ببيروت

يا زمانَ السعودِ والافلاحِ عمرك الله ما اعدتَ الزياره
أيّ اتانا طلّقتَ هذي النواحي حين امستْ اخلاقها مستعاره
هل عزمتَ المقامَ في اوربّا حيثُ خلتَ الهوا اصحّ وانقى
واقمتَ المالَ المعظمَ ربّا فوجدتَ الورى هنالكَ اتقى
هل رأيت البلاد ثمّةَ اخصبْ ووجدتَ السماء ابهى واصفى
هل رأيت السكان في الفضل ارغبْ وبذكرِ الجميل والعهدِ اوفى
أيّ شيءٍ في الغربِ عنّا تناكا أجمالٌ في الارض ام في البلادِ
كل نفسٍ منا تروم رضاكا فعلى مَ الجفا وطولُ التمادي
يا زمانَ الفلاح بالله قلْ لي من تجنّي عليك حتى ارتحلتا
من رأى فيك غير فضلٍ ونبلِ مَن توانى عن فعل ما قد امرتا
افسادٌ في الارض ام في بنيها وتحوّل في الشمس ام في الكواكبْ
حالةٌ لا أرى التوسّمَ فيها مجدياً واللبيبُ مَن لا يحاسبْ
آنَ يا اهل موطني ان نجانبْ كل ما يجلبُ الخمولَ علينا
غيرُنا شدّ للمسيرِ الركائبْ وجميعاً بتنا نسيرُ الهوينا
ايّ فوز للقاصرِ المتواخي ان تبارى مع القويّ المحنّكْ
ايفيدُ الفريقَ كثرُ الصراخِ والايادي لشلهِ لا تحرّكْ

ايها السادة والسيدات

يعلم الله وبضعة من خلقهِ اني ما اخذت على نفسي الكلام عن السوري في هذه الليلة الاّ قياماً بطلب الجمعية . لانهُ مهما كان لهذا الموضوع من الاهمية في نظر التاريخ والسعة في جانب الحقائق فهو تافه مبتذل في نظر الكثيرين ضيّق المجال على الباحثين الصادقين والحالة كما تعرفونها انتم وانا . وفوق ذلك ان في المثول لدى هيئة سورية والتعريض او التصريح ببعض مساويها من خاطب يبغي رضاها لحرجٌ لا يعرفهُ الاّ من عاناهُ . يسمع البعض ما لا يروقهم ولا ينطبق على منتظرهم فيتقبّضون ويتهاونون بالاصغاء غير ذاكري القول المأثور "لعلّ لهُ عذراً وانت تلومُ" والبعض لا يقف عند حد التهاون بالاصغاء بل يتعداهُ الى سهل

المبالغة في التخطئة والتفنيد — وهذه خلة شائعة بين الكثيرين فهم ينظرون الى القائل لا الى المقول ويحكمون كما يوافق اهواءهم لا كما يوافق الحقيقة

وعليهِ فان الداعي الماثل لديكم قد تدبر كل هذه الاشياء فرأى ضيق الموضوع وتفاهتهُ وخطر الخوض فيهِ واقدم بعد كل ذلك عليهِ لا عن هوان تعودهُ فسهل عليهِ بل ثقة بان في الهيئة الحاضرة من يعتبرون الحقيقة وما قالت واملاً بايراد شيء مفيد ولو لم يكن على جانب عظيم من الطلاوة . هذا ولم اتوخَّ في خطابي البحث التاريخي عن السوري ولم المُّ بتفصيل ما كان عليهِ في عهد الفينيقيين والكنعانيين والاراميين والاسرائيليين واليونان والرومان والعرب . ومن شاء ان يطلع على شيء من ذلك فليراجع التواريخ فيرى ما لا ينطق بهِ الآن لخرج الموقف وضيق المقام ويقف على ما كانت عليهِ تجارة السوريين وزراعتهم وصناعتهم وامارتهم ومابلغوا من العز والسؤدد وما اوردوا واصدروا وعلوا وعلَّوا وكيف حكموا وحُكموا وبكلمة يرى درجتهم من الحضارة والعمران — احاديث يزوقنا سماعها وترقص لها قلوبنا لاننا نرى فيها ما ينطق عن عظمة اسلافنا الغابرين فنتلهَّى بذكر الماضي ولا نمعن الاَّ في محاسنهِ فيشغلنا عن الاهتمام بالحاضر والنظر في تلافي مساويهِ

ولطالما اسمعنا الخطباء والكتاب وصف حالتنا الغابرة وابرزوها بحلة من المعاني وحوَّك من المباني يعجز عن الاتيان بمثلها الكثيرون حتى اصبح قول بعضهم (بلادنا احسن البقاع تربة وهواء ... كنا اهل السطوة غير معارضين ... الى آخر ما هنالك) مأثورًا تتناقلهُ الالسن والاقلام

فيا ايها العاقلون ما الفائدة من ذكر الغابر اذا كان يزيد الصدر ضيقًا والنفس كمدًا . وما لنا وللماضي ولا مردَّ لهُ . ولم نغفل النظر في الحاضر وحسن المستقبل فيهِ . ماذا ينفعنا التباهي بالجدود واصلُ الفتى ما قد حصل . كفانا تبجحًا بذكر الماضي والمباهاة بالسلف فنحن في عصر لا يطول فيهِ رواج البضائع المستعارة ولا تفلح فيهِ الآراء المتقلبة ولا ينفع فيهِ الانقياد الاعمى

سبق القول ان مدار الكلام الليلة سيكون على السوري ابن القرن التاسع عشر وما بعدهُ لا ابن القرون الخوالي وقد اتخذت الموضوع على اطلاقهِ لألمَّ بكل مهم من اطرافهِ واظهر السوري في مظهر يجعل تبين فيهِ محاسنهُ ومساويهِ فاحلهُ عنهُ اللوم من جهة واكربهُ من اخرى حتى ينجلي المرمى الذي اتوخاهُ وما هو الاَّ نبيل ان شاء الله

السوري ابن القرن التاسع عشر غريب الاطوار والصفات . ترى فيهِ ما يدل على تسلسلهِ من الشعوب الساميَّة ممزوجًا بما اكتسبهُ قديمًا وحديثًا من مخالطتهِ الشعوب الآرية فهو دين بالطبع يخاف الله حذِرٌ زكن مقرائه يكرم الضيف تنوع يميل الى الدعة والراحة ومقدامٌ عند

الحاجة قادر على الكد والعمل يأبى الهوان ويضرب في الآفاق تعيشاً . فلو تيسر لهُ والحالات هذه ان يتربى التربية العلية ويتهذب التهذيب الصحيح ويفسح لقواهُ العقلية مجالاً تظهر فيهِ لنال السبقة في كل ميدان وادهش الاقران بمقدرتهِ ومآتيهِ

ولما اصبح السوري منذ الربع الاخير من القرن الماضي الى الآن حلف الاسفار والتغرب والمخاطرة حتى قال فيهِ احد الشعراء المصريين

يضيق على السوري رحبُ بلادهِ فيركبُ للاهوالِ ما هو راكبهُ

قلق الغيور على الوطنية وخاف الدائب في جمع الكلمة وتأفف الغيورن على مصالح البلاد لانهم رأوا في انتزاحهِ ضياع الوطنية وتفريق الكلمة وتأخراً في الزراعة والصناعة والتوالد . ثم قام ولاة الامور وشددوا الاوامر على طالبي الانتزاح وضيقوا في وجوههم سبل السفر وتهددوهم بالعقوبات وعاقبوهم ولكنهم كانوا كأنهم يضربون في حديد بارد فواظب السوري على السفر والتغرب وطلب الرزق تحت كل جو من جواء المعمور واصبح السوريون اشتاتاً بين كل امة ولسان حتى كأن نبوة الكتاب شملت الاسرائيليين والسوريين ولا غرو فكلاهما من الاصل السامي

وكان الانتزاح بادئ بدء يتناول السوري الذي ضاقت عليهِ موارد الرزق وتهددهُ الاملاق وما زال كذلك حتى كثر عدد الشبان المتخرجين في المدارس العالية الحاصلين على درجات التهذيب الوافقين على حقوق الواجبات وواجبات الحقوق المتأهلين لتولي المناصب ومعاطاة الاعمال فخرجت عن استيعابهم البلاد لا بل حرجت صدورهم عن البقاء فيها وليس لهم من المصالح ما يكفل لهم حسن المعيشة وهناء البال . فسافروا مع من سافر ودأبوا مع من دأب وجروا مع من جرى وتوظفوا مع من توظف ودرسوا مع من درس وكانت النتيجة انهم سبقوا من جاراهم حتى صار واحدنا يتوق الى السفر تشبهاً بالكرام الذين سبقوهُ ولسان حالهِ ينشد

بلادي لا ارى فيكِ الاقامه لمن يهوى التعزز والكرامه
فان ازمعتُ عنك البين يوماً فقولي لي ترافقكَ السلامه
ابينُ ولا جفاً فيكونُ بيني مواصلةً تطولُ بلا سآمه
ابينُ ورسمك المحبوبُ يبقى على لوح الفؤاد الى القيامه
اريد لكِ العلى حتى تصيري على وجنات هذى الارض شامه
اريد الحق ان يمسي حليفاً لارباب المكانة والزعامه
اريد العلمَ ان يجري عيوناً فيشفي كلنا منهُ أُوامه

اريد النور ان يمتدّ فينا فينسخ من تعصبنا ظلامه
اريد اريد ان تغدى بلاد بها تجلى الجلالة والفخامه
وان طالت نوايَ فلا تقولي تأنّي ثم لم يحفظ ذمامه
فنفسي حيثما امضي اراها بسوريّا العزيزة مستهامه
أأنسى جوّك الصافي ومنهُ كسبت صفاء شعري وانسجامه
فكم راقبتُ فيهِ البدر يجري ولا كدرٌ هناك ولا غمامه
وصنّينُ القديمُ تحوطهُ غيماتٌ فكانت كالعمامه
وبحر الروم منبسطُ الحيّا يحيي البدرَ اذ لاقى تمامه
مظاهرُ تهيجُ الصبَّ المعنّى وتذكرهُ بسلمى او بمامه
فيجلو بعضها عنهُ شجاهُ ولكن بعضها يذكي غرامه
وكم احييتُ ساعات طوالاً افكّر في الحياة المستضامه
وكان بجانبي خلٌّ انيس يعاشيني ويمحضني وئامه
يبادلني المنى ويقول صبرًا سيرضى دهرنا ونرى ابتسامه

ذريني يا بلادي للتنائي فلا حرجٌ عليَّ ولا ملامه
اسير الى اقاصي الارض وحدي اذا لم تحلُ لي فيكِ الاقامه
لقد غرستْ يمينُك بي طباعًا لها من كل مكرمةٍ دعامه
عزيز النفس التي كل صعبٍ ويُقلقني الطفيفُ من الظلامه
يهون عليَّ ان التي المنايا ولا التي من الفرّ احتكامه
يهون عليَّ ان اسعى لرزقي وليس عليَّ الاَّ طاق خامه
ولا من يحزني سعي اعتباطا وليس بطافتي الشكوى امامه

ولا مراء ان انتزاح السوري كان بادئ بدء بحكم الاضطرار وكما كان بحكم الاضطرار لا يوجه عليهِ اللوم والتفنيد . وعندي (ان كان لي عند) ان هذا الانتزاح سيطول امرهُ الى ما شاء الله ويعم الكثيرين كما هو مشاهد في ايامنا الحاضرة ولا ينقص معدلهُ الاَّ اذا استغنت البلاد وكثرت فيها موارد الرزق والتعيش وهذا ما لا يعيّن زمانهُ الاَّ من بيديهِ ملكوت السموات والارض

اذًا سائر ايها السوري النشيط ما استطعت الى السفر سبيلاً وانزح الى اية بلاد اردت على شرط ان تضع نصب عينيك سوريا العزيزة بجبالها وحزونها وهضابها وبطاحها وعيونها

وانهارها واشجارها واثمارها وتحنّ الى شمسها وقمرها ونجومها وتذكر صيفها وخريفها وشتاءها وربيعها وتشوق الى مسقط راسك الى العود الى مرابع طفولتك وصبوتك وفتوتك الى مقام اهلك وذوي قرابتك . ومتى يسّر لك الله رزقاً واحرزت من تغريبك مالاً يسهل لك المعيشة في قومك فعد الى بلادك مكللاً بالفوز والنجاح حاملاً اليها الاختبارات المفيدة وعش فيها واسعَ لتعزيزها فانها في اشد الحاجة اليك ولا تفلح الاّ بك وبامثالك من رجال المال والاعمال

واما ما ينادي بهِ بعض اهل الدين من ترك المال وترك السعي لهُ فانما يعنون بهِ شدة الولوع بالمال وتضحية قوى النفس جملة لمجرد تحصيلهِ واذخارهِ والاّ ان كانوا يعنون ترك السعي لتحصيل المال الذي هو خير الذرائع لترقية البلاد فلا شك انهم يتعسفون في اقوالهم تعسفاً والآخذون بكلامهم مخدوعون او مخادعون

فيا ايها السوري يا من يتشكى من ضيق الاحوال ولسان حالهِ يقول

" ايشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على ارض من الذهب "

دع التشكي من الاحوال واعتقد بحكم بعضهم ان الرجال تُوجِد الاحوال وجدّ وادأب وأقم لنفسك حالاً خاصة واملأها بالحركات ومتى ابطلت الحركة فليكن لسكون الليل واسترجاع القوى بالراحة والنوم واذكر ان الامانة اس النجاح فاتخذها مبدأ راسخاً في اعمالك ومعاملاتك وانا الكفيل لك بحسن الحال وانفراج الضيق

ومن تكد الطالع ان سوريا واقعة في نقطة متوسطة بين الامم التي تغلبت على المعمور بحيث يسهل الوصول اليها والجلاء عنها فكان كلما قويت شوكة قائد شرقيها او غربيها يزحف عليها ويجتاحها وينكل باهلها ثم يضرب عليهم الجزية ويرتحل وهكذا تغلب عليها الاشوريون والبابليون والفرس والمصريون واليونان والرومان والعرب وانتابتها الحروب وثارت فيها الفتن ومع هذا كلهِ حافظ اهلها على لغاتهم وعوائدهم ولم تقوَ امة من الامم الغالبة على ابتلاعهم وتجنيسهم بجنسيتها وما زالوا كذلك حتى ظهرت الدعوة الاسلامية في بلاد العرب وجمعت كلمة القبائل هناك فاندفعوا يفتحون البلدان ويخضعونها حتى افتتحوا سوريا مع ما افتتحوا ونشروا فيها اللغة العربية فامتدت وتأصلت وامتصت اللغات التي كانت شائعة على الالسن آنئذٍ في اقل من قرن وذلك لانها كانت لغة الامة الفاتحة وبنت عم اللغات الأُخر . فامتلك السوريون بتوحيد لغتهم قوة عظيمة من قوى الارتقاء الجنسي

فنحن والحمد لله قوم لهم لغة من اوسع اللغات واتقنها حتى قال فيها استاذ كبير من احدى مدارس اميركا الجامعة انهُ اذا كان من حق لغة ما ان تعيش وتنتشر وتعم المعمور لجودتها

والقان مشتقاتها بحيث يمكن التعبير بها عن كل معنى دقيق فتلك اللغة هي العربية

ولنا شيء من العصبية ولا ينكر علينا احد اننا اهل سعي وجد ولكن يؤخذ علينا امور كثيرة منها ميلنا الى الترف رجالاً ونساء فقد تشبهنا بالاوربيين في انفاقهم ولم نتعلم منهم طرق الاقتصاد ومنها ميلنا الى اللهو وقضاء الوقت الثمين في ما لا يجدي فترى الجماعات منا مجتمعين يلعبون بالورق او بالطاولة والزهر او يلهون بالاحاديث الفارغة . ومنها خوفنا من المجاهرة بالحق والتجاؤنا الى المجاملة والاطراء . ومنها التعصب المذهبي الراسخ في نفوسنا حتى غلبت الجامعات الدينية على كل جامعة جنسية او وطنية ولو في الدين لا ينكرون في مطالب الدين يوماً في حياتهم . ولو كان لنا دين واحد لما كان في الامر بأس ولكن لنا اديان كثيرة ومذاهب عديدة ففرقت بيننا الجامعات الدينية اشد تفريق

فاذا تغلبنا على هذه النقائص فابعدنا عن الترف ولم نعد نخشى ان نظهر فقراء ولم نعد نتظاهر بالغنى اذا كنا فقراء واعتدنا طرق الاقتصاد وعرفنا قيمة الوقت حتى صرنا نحرص عليه حرص البخيل على درهمه لا ننفقهُ جزافاً ولا نقتلهُ مجادلة ومساومة او تلهياً بما لا يجدي . واذا صرنا نجاهر بالحق ولا نخدع الحاكم بالاطراء ولو كان لا يستحق الاَّ اللوم . وفوق الكل اذا نزعنا التعصب الديني وحسبنا الناس كلهم اخواناً متساوين ولا يتفاضلون بالتعصُّب المذهبي بل بالاعمال الصالحة وصرنا نأبى الاصغاء الى كلام الاب او الام او الشيخ او القسيس اذا كنا نرى فيهِ تلوياً عن جادة الحق واجحافاً بحقوق الانسانية وتفريقاً في الجامعة الوطنية واضعافاً للهيئة الاجتماعية — اذا صرنا كذلك حق لنا ان ندعى امة من الامم الراقية مراقي النجاح

بقي عليَّ كلمة ختامة وهي ان البلاد لا تقوى لها قائمة الاَّ بانتشار التعليم والتهذيب على الاصول الصحيحة التي توسع دائرة العقل والتصور وتعوِّد الانسان على العمل والاكتساب . ولا ينتشر التعليم بدون انتشار المدارس ولا تنتشر المدارس بدون اقبال الناس عليها ولا يقبل الناس على المدارس ما لم يتجبحوا ويرغد عيشهم . وطالما نرى التعليم مقصوراً على الافراد القليلين وليس سوى حفظ مفردات لغوية وحقائق تاريخية او القان التكلم بلغة اوربية فما هو بالتعليم المفيد واضراره في بلادنا اكثر من منافعهِ . اجارنا الله من كل من يزيد في تفريق كلمتنا ويعمل على اضعاف جنسيتنا

بولس الخولي